موقع العبادات في الكنيسة

المقدّمة

تدعونا الكنيسة اليوم بتعاليمها للقيام بعبادات روحية تقليدية وجديدة، وبالرغم من ذلك، فإنّها تلقى معارضة من قِبل الكثيرين بالرغم من عدم اختبارهم لها وعدم تعمّقهم فيها؛ وليس هناك أسهل من الاعتماد على الكتب والمراجع العلميّة عندما نجعل من الخبرة الروحيّة والعبادات التقليدية شيئًا يشبه غيره من الأمور التي تُجرى الاختبارات عليها دون أن تُعاش لتُختبر.

أمّا بالنسبة لنا، فسنسرد، ولو بشكل سريع، بعض الخبرات، محاولين بذلك فتح باب الحوار، وليس الجدل، على مدى أهميّة البحث في هذه المواضيع، دون المساس بكرامة المؤمنين الكثيرين الذين يمارسونها. لذلك سنتطرّق في بحثنا إلى ثلاثة مواضيع: الأوّل، تأثير العبادات على المؤمنين في الكنيسة، الثاني، العبادات هي جزء لا يتجزّأ من التقليد الكنسي، الثالث، الكنيسة تعطي فسحة لاختبار المؤمنين كي تتطوّر بالروح.

أ-تأثير العبادات على المؤمنين في الكنيسة

لمعرفة مدى تأثير العبادات على المؤمنين في الكنيسة، علينا الارتكاز على بعض الخبرات التي تنيرنا، ولو بشكلٍ سريع، على فعاليّتها، وتعطينا، ولو فكرة بسيطة، عن التغييرات الناتجة عنها في قلب الرعيّة الملتزمة بها.

لذلك سنأخذ مثلان: صمدة القربان مباشرةً بعد القدّاس وعبادة المسبحة الوردية.

أوّلاً- صمدة القربان:

عندما يُصمد القربان مباشرةً بعد القدّاس أو قبل إعطاء البركة الختامية، يشعر المؤمن بنفسه مدفوعًا للاعتراف بالكنيسة التي وُهبت سلطان الكهنوت السماوي لتترجمه في خدمة الكاهن الذي تمّم السرّ من خلاله ومن خلال إيمان الشعب. وبما أنّ هذه الخدمة هي تحويل تمّ على إيمان الشعب بسلطان الكنيسة، فالمؤمن يعي،

بسجوده أمام القربان واعترافه بالتحويل، انتماءه الكنسي وضرورة التزامه بممارسة الأسرار. يتّضح للمؤمن بعبادته هذه، مدى أهميّة طواعيّته لتعاليم الكنيسة التي تعلّم كلام الإنجيل. في الواقع لقد قال المسيح: "إصنعوا هذا لذكري حتى مجيئي"، وطلب من تلاميذه تطبيق هذا الكلام؛ والمستفيد الأوّل هو المؤمن بكلام المسيح، لأنّه بتطبيقنا لكلام المسيح بإيمان، يتدخّل الروح ليتمّم التحويل. والتحويل هو حلول إلهي، وتطبيق لوعد المسيح الذي يتمّ في كنيسته المعلّمة. لذلك فالسجود مباشرة بعد المناولة هو شهادة لصحّة تعاليم الإنجيل الذي تعلّمه الكنيسة.

وعبادة القربان هذه تخلق الوعي عند المؤمن الممارس على أهميّة ما هو مزروع في كاهن رعيّته، فتتولّد عنده المهابة والاحترام وحبّ التقرّب من كاهن رعيّته، لينتهي سوء التفاهم ويحلّ السلام. أمّا إذا عكسنا الأمور وبدأ الكاهن بانتقاد هذه العبادات والتهرّب منها، فسوف تُخلق هوّة عظيمة بين ما يتحلّى به هو من نعمة سماوية وبين ما يتوق إليه المؤمن. في الواقع تصبح علاقته مع أهل الرعيّة اجتماعية فقط، مبنيّة على العلاقات والواجبات، لتمتدّ فتطال الأسرار، فتُخليها من الحسّ الروحي.

ثانيًا– عبادة المسبحة الوردية

أمّا بالنسبة لعبادة المسبحة الوردية، فهي عبادة سماوية كنسية تقليدية (وأرفق البابا عبادة الورديّة دائمًا بكلمة تقليدية في رسالته "مسبحة مريم العذراء") منبعها الإنجيل. أوّلاً المسبحة عبادة تشجّع عليها السماء، خاصّة عندما يعيش المؤمنون التردّد باعتناقهم لها. إنّ ظهور العذراء في فاطيما يؤكّد على قولنا هذا، خاصّة وأنّ العذراء بنفسها أطلقت على نفسها اسم "سيّدة الورديّة"، وشجّعت العالم على ضرورة ممارسة هذه العبادة. ثانيًا المسبحة عبادة كنسيّة، لأنّ الباباوات في رسائلهم، حتّى قبل هذا الظهور، كانوا يشجّعون المؤمنين على اعتناق هذه العبادة، والدليل على ذلك السنة التي أعلنها البابا يوحنّا بولس الثاني على اسم "سنة الورديّة"، ونشر رسالته البابويّة المعروفة تحت اسم "وردية مريم العذراء" سنة ٢٠٠٢، وفيها طلب من اللاهوتيين القيام بدراسات معمّقة حولها كي يجعلوا المؤمنين، من خلال تفكيرهم السديد والحكيم والمتأصّل في كلمة الله، يكتشفون الأسس البيبلية والكنوز الروحية والقيمة الرعائية لهذه الصلاة التقليدية (رقم ٤٣)، وألاّ يضيّعوا القيمة الخلاصيّة الكامنة فيها. ثالثًا المسبحة عبادة إنجيلية كتابية لأنّ مجمل مضمونها مأخوذٌ من أناجيل البشارة والزيارة والصلاة التي علّمها المسيح لتلاميذه حين أنارهم على كيفية عبادة الآب السماوي.

والأمر الذي لفت أنظار الإكليروس، هو دعوة البابا يوحنّا بولس الثاني إلى تلاوة مسبحة الوردية أمام القربان من أجل تأمين عبادة حسنة ليسوع الذي حلّ في أحشاء العذراء ووُلد منها، هي التي تمّمت العبادة قبلنا، والمخوّلة تعليمنا إيّاها من باب مدرستها، إذ أطلق عليها عبارة "إمرأة إفخارستيّا". لذلك فربط عبادة المسبحة بعبادة القربان عملٌ شجّعت عليه الكنيسة بالاستناد على الإنجيل وعلى الإيحاءات السماوية (رقم٩).

ب–العبادات هي جزء لا يتجزّأ من التقليد الكنسيّ

إذا ما حوّلنا أنظارنا باتّجاه عدد الناس الذين يمارسون عبادات معروفة، كزياحات القربان، وصورة العذراء، وصور القدّيسين، أو كتكريس أشهر كاملة من أجل عبادة معيّنة، كشهر قلب يسوع في حزيران، أو شهر أيّار من أجل العذراء مريم، أو شهر المسبحة الوردية في تشرين الثاني، نلاحظ بأنّ أعداد الناس يتخطّى المعقول.

فالسؤال المطروح إذًا هو التالي: من الذي نشر هذه العبادات بين الناس المؤمنين؟ أليست الكنيسة؟

كاهن الرعية، كما سبق وذكرنا، يمثّل السلطة الكنسية، لذلك فهو مؤتمن على الوزنة التي أوكلته بها؛ فموضوع العبادات إذًا لا يتحمّل السخرية ولا الاستهزاء من قِبل الكاهن، وإلاّ فعلى ماذا هو مؤتمن؟ أعلى الجنّازات والأكاليل والعمادات فقط؟ إنّ ممارسة المؤمنين لهذه العبادات والتزامهم بها، يتأتّى من تبنّي الكنيسة لها منذ القِدم، لذا فهي تشكّل وحدة مع التقليد. أمّا إذا اضمحلّت ممارسة الناس لها، وجئتُ ككاهن رعية وأحييتها من جديد لأنّني مارستُها وآمنتُ بها، وبدأ المؤمنون بتبنّيها، ألا يكون ذلك علامة للإتّحاد بالكنيسة الكاثوليكية؟ لنأخذ مثلاً بسيطًا: نحن كلّنا نؤمن بالاختلافات السائدة بين الكنائس، أليست عبادة القربان عملاً يميّز الكاثوليك عن الإنجيليين؟ وعبادة المحوّل شهادة تؤكّد على صحّة التحويل الذي يتمّ خلال الذبيحة الإلهية. أمّا إذا ألغينا عبادة المحوّل فيصبح من الخطر علينا أن نحوّل الاحتفال بالذبيحة إلى ذكرى لموت وقيامة المسيح دون أي إحساس وإيمان بالتحويل الذي يتمّ في حضورنا.

ألا يردّ ذلك على دعوة البابا يوحنّا بولس الثاني في رسالته التي تحمل عنوان "إبقى معنا يا ربّ" (سنة ٢٠٠٤ – ٢٠٠٥) الموجّهة إلى المطارنة والإكليروس والمؤمنين (رقم ١٨) التي يطلب فيها تنمية الوعي الكامل عند المؤمنين لحضور المسيح الحقيقي في بيت القربان. "إنّ اعتماد بعض الوسائل التي تتيح لنا عيش هذا الحضور لهو

عمل نشجّع عليه؛ مثلاً إعتماد الفترات الصامتة خلال القدّاس وفي ساعات السجود، وتوعية الناس على المسيح الفعلي في بيت القربان الذي ينبغي أن يستقطب النفوس ويكون العامل الجاذب والأساسي لها". ويدعونا البابا أيضًا للمكوث طويلاً أمام يسوع الحاضر في القربان. وقد نستعين أمام القربان بوسائل عديدة منها النصوص الكتابيّة أو الصلوات المفعمة بكلام الله أو نصوص الآباء أو المسبحة الورديّة.

بالإضافة إلى ذلك، فالبابا يعيد إحياء التقاليد القديمة باعتبارها ملهمة، فيقول داعيًا إلى ضرورة "عيش التطوافات التقليديّة بحرارة مميّزة، وهي نوع من الاحتفال بجسد الربّ. إنّ الربّ بتجسّده صار رفيق الدرب، فلنعلنه في كلّ مكان وبالأخص في شوارع مدننا وفي منازلنا، كتعبير لحبّنا المملوء عرفانًا، وكينبوع للبركات لا ينضب".

ج–الكنيسة تعطي فسحة لاختبار المؤمنين كي تتطوّر بالروح

إنّ الكنيسة تعتمد على خبرات المؤمنين وممارساتهم في تطبيق الإنجيل من أجل كتابة لاهوتها، كما حدث مع الكنائس التي كتبت الأناجيل وأعمال الرسل. وهذه الخبرات والكتابات استلزمت تدخّل الكنائس للعمل على التحقّق من صحّتها ومن مفعولها على المؤمنين. لذلك فالدعوة موجّهة للكنيسة من أجل ترك بعض الفسحات الحرّة أمام خبرات مؤمنيها الذين هم أيضًا هياكل الروح القدس كما يقول بولس الرسول في رسائله. فالروح يتكلّم ويوجّه من خلال المؤمنين الملهَمين كي يطوّر الكنيسة، ويوحي لها بالمفاهيم الجديدة لكلمة المسيح من أجل تطبيقها والاغتناء بها في سبيل توضيح الطرق المؤدّية إلى الملكوت.

سنعطي مثلان فقط لدعم هذا القول بالرغم من كثرتهم.

المثل الأوّل، تلاوة المسبحة أمام القربان مباشرة بعد المناولة:

بعد البحث والتدقيق، أنا من الأشخاص الذين بدأوا بممارسة هذا النوع من العبادة منذ حوالي خمسة وعشرون عامًا، وإنّ هذه العبادة لم تُمارس قط في تاريخ الكنيسة. في أيّار ٢٠٠٤، وجّه البابا رسالة تعليمية صغيرة يدعو فيها إلى الصلاة من أجل الدعوات، ويعدّد مجمل الصلوات، إلى أن يدعو إلى تمديد ليتورجية القداس نوعًا ما من أجل عبادة القربان من خلال تلاوة المسبحة الوردية، أو من خلال مدرسة مريم التي أطلق عليها اسم

"إمرأة إفخارستيّا". بهذه الرسالة يكون البابا يوحنّا بولس الثاني قد كرّس صحّة هذه العبادة، وتكون الكنيسة قد تبنّتها وطوّرت عباداتها من خلال إلهامات الروح لمؤمنيها.

المثل الثاني، زياح القربان والعذراء والصليب.

لقد بدأتُ بممارسة العبادة بشكل جماعي منذ حوالي الست سنوات، ولكنّني كنت أعرفها منذ حوالي سنة ١٩٨٣، واعترضها الكثيرون لعدم فهمهم للاهوتها. منذ عدة سنوات، وأثناء لقاء الشبيبة في كولونيا إلمانيا، قام البابا يوحنّا بولس الثاني بصمد القربان طوال الليل للسهر أمامه، وأنهى سهرة السجود هذه بزياح ضمّ فيه القربان وصورة العذراء التي أهداهم إياها خلال هذا اللقاء، والصليب الذي أهداهم إيّاه أيضًا سنة ١٩٨٥. بذلك تكون الكنيسة قد تبنّت هذا المذبح المتنقّل، وكرّست أيضًا هذا النوع من الزياحات.

الخاتمة

نحن اليوم مدعوّون كي نحافظ على تعاليم الكنيسة كما هي، وإذا أردنا أن نكون أمينين لها، فلا يمكننا أن نفرّق بين القديم والجديد فيها، وإلاّ لأمكننا القول وبشكل طبيعي أنّ الإنجيل أصبح قديمًا، والحياة الرهبانيّة أضحت قديمة، و لم يعد باستطاعتنا تقبّلهم في عصرنا هذا.

وإذا أردنا اعتبار العبادات، كالسجود أمام القربان والمسبحة الوردية وقلب يسوع والتطوافات، عبادات تنتمي إلى القرون الوسطى، و لم يعد لها اليوم أي دور تترجم من خلاله في كنيستنا، ألا نخاطر بحكمنا هذا في الوقوع بحالة تشكيك بكلام الكنيسة، التي، إن نظرنا إلى تعاليمها تلك من هذا المنظار، فإنّنا سنتوصّل إلى اتّهامها بتضليلنا.

وإذا نظرنا إلى خبرات البعض من الذين التزموا، فإنّها تتمحور حول ضرورة الإخلاص لتعاليم الكنيسة وتقاليدها، لأنّها ساعدتهم على الخروج من حالة الرفض للكهنة وللمطارنة التي كانوا يعيشونها سابقًا، إذ أنهم لم يكونوا بالنسبة إليهم معلّمين، وإنّما أشخاصًا ضربتهم آفات السعي وراء السلطة والمال.

وهذه كانت أكبر علامة لهم، أنّهم شعروا بلحظة من اللّحظات أنّهم خارج الكنيسة، إمّا لأنّ التعاليم التي تُترجِم الإنجيل والعقائد ضربها النشاف، وإمّا لأنّ هذه التعاليم لم تعد تخلق عند الإنسان أيّ تساؤلات.

أمّا التغيير الذي حصل في نفوسهم وفي حياتهم، فقد حصل لأنّهم وُجدوا برفقة كهنة ومطارين ممارسين، وعّوا فيهم روح الارتداد، وأصبحوا من جرّاء التزامهم علامة تدعونا للتغيير والالتزام.